# محاضرة : الفكر الجزائري الوسيط

# ( أحمد الونشريسي)

هو ابو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبدالواحد بن علي الونشريسي التِّلمساني الأصل والمنشأ ،الفاسي الدار والوفاة والمدفن[1] ،عام 1431م" ، ولِد – رحمه الله – بجبال ونشريس التي تُعَد أكثر الكتل الجبلية ارتفاعًا في غرب الجزائر حوالي عام 834هـ – 1431م، ت 914هـ – 1508م، ونشأ بمدينة تلمسان؛ حيث درس على مجموعة من العلماء[2]،وتولى قضاء تلمسان،في كتابه " المنهج الفائق " يقر بأن هجرته من تلمسان إلى فاس كانت فرارا ،فمعارضته للسلطان و عدم مسايرته له وكونه كان يقول الحق كلما رأى الأمور تخالف الحق ،فلم يكن يخاف في ابداء رأيه ،فكان هذا من أسباب محنته ،فأثار هذا غضب السلطان ،وأمر بنهب داره ، فخرج إلى فاس ،بالإضافة لعدم الاستقرار السياسي والأمني أهم أسباب خروجه إلى فاس ،حيث أستقبل بحفاوة ،فقد سبقت شهرته هجرته ،فأكرمه العلماء وفرح به الطلبة ،حيث قدمه السلطان المريني للتدريس في مدارس فاس ومساجدها ،توفي سنة914 هـ-1509 م،وهي السنة التي وقعت وهران تحت وطأت الإستعمار الإسباني ،ودفن بفاس.

**<u>شيوخه:</u>**

تتلمذ – رحمه الله – على يدِ مجموعة من العلماء والشيوخ، منهم على سبيل المثال:

–1أبو الفضلِ قاسم بن سعيد بن محمد العقباني، نسبة لبني عُقْبة بضم العين وتسكين القاف، الفقيه التلمساني، المجتهد الناقد، تولَّى قضاء تلمسان، ت 854هـ، له

[1] عمر رضا كحالة ،معجم المؤلفين ، طبعة 1957، مطبعة الترقي، دمشق، ج1، ص 223.

[2] ابن مريم ،البستان في ذِكر الأولياء والعلماء بتلمسان، طبعة 1908م، المطبعة الثقافية، الجزائر.

تعليق كبير على ابن الحاجب، والفرائض في الحساب، قال الونشريسي عنه:" شيخ شيوخنا، الإمام المفتي العالِم" [1]، تأثر به، ونقل كثيرًا من فتاويه في معياره.

-2أبو عبدالله محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي التلمساني، الشهير بابن العباس، العالِم المحقِّق الحجة المفتي، ت 871هـ، له تصانيف أهمها شرح لامية الأفعال، وفتاوى كثيرة، درج بعضها في المعيار والمازونية، قال عنه الونشريسي: "شيخ المفسِّرين والنُّحاة،العالِم على الإطلاق،شيخ شيوخنا" [2].

- 3أبو عبدالله محمد بن عيسى المغيلي، الشهير بالجَلاَّب، التلمساني، العالِم العلامة الرَّحَلة، المتفنِّن الفاضل الفهَّامة، تولى قضاء الجماعة بتلمسان، ت 875هـ، قال عنه أبو العباس: (شيخنا الفقيهُ المحصِّل الحافظ)، ونقل بعض فتاواه في المعيار، كما نقلها المازوني في المازونية[3].

-4أبو سالم إبراهيم بن الشيخ أبي الفضل قاسم بن سعيد العقباني التلمساني، قاضي الجماعة بها، العالِم الفقيه الفاضل الفهَّامة، أخذ عن والده وعن غيره، وعنه الونشريسي، وأثنى عليه ونقل عنه في معياره، ت 880هـ، قال عنه الونشريسي: "شيخُنا الإمام القاضي الفاضل " [4].

**<u>مؤلفاته</u>**

- *كتاب" المعيار المُعْرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب"*، وهو من أعظم الكتب التي كادت تحيط بمذهب الإمام مالك، والكتاب مطبوع متداول،

---

[1] ابن مخلوف ،شجرة النور الزكية في طبقات المالكية؛ ، ج1، المطبعة السلفية، القاهرة، طبعة 1350هـ، ص 255.

[2] نفس المصدر، ص 145 .

[3] نفس المصدر ، ص 149.

[4]نفس المصدر ، ص 150

وقد طبع بفاس في 12 مجلدا ، جمع فيه فتاوى ونوازل ونصوصا ذات أهمية بالغة في معرفة الحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية والاقتصادية في المغرب والأندلس في عصور مختلفة، قال صاحب نيل الابتهاج (جمع فأوعى وحصل فوعى.(

- الوَفَيَات، وهو كتاب ضمنه ترجمة كاملة لشيوخه، ويعتبر العمدةَ لدى مترجميه، يبتدئ بعام 701، وينتهي بعام 912هـ؛ أي: قبل وفاته بسنتين، عُنِيَتْ بنشره دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ضمن كتاب: ألف سنة من الوَفَيَات [1].
- *إضاءة الحلل في الرد على من أفتى بتضمين الراعي المشترك*

•*المنهج الفائق والمَنْهل الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق [2]، وقد حقَّقَتْه الأستاذة لطيفة الحسني*

- *الولايات في مناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية*
- *ايضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك*
- *أسنى المتاجر وبيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر*
- *غنية المعاصر والتالي في شرح فقه وثائق أبي عبد الله الفشتالي.*
- *عدة البروق في تلخيص ما في المذهب من الجموع والفروق ، طُبِع على الحجر بفاس في 296 صفحة [3].*
- *الفروق في مسائل الفقه*
- *مختصر أحكام البرزلي.*
- *تعليق على ابن الحاجب الفرعي* في ثلاثة أسفار.

---

[1] محمد حجي ، مقدمة كتاب المعيار ، ص هـ.

[2] ينظر مقدمة كتاب المعيار لمحمد حجي، ص د.طُبِع على الحجر بفاس عام 1298، في 373 صفحة

[3] حققه الأستاذ أبو حمزة فارس، ونشره دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990م.

**موقفه من الحملة الصليبية:**

لقد كان الغزو الصليبي على الشمال الإفريقي و كان مصحوبا بغزو فكري متمثل في الحملات التنصيرية التي مارسها المسيحيون على مرأى ومسمع من السلطان وأعوانه و تنشر المصادر الأجنبية المصير المأساوي ''مرتان دوسيوليت" على يد سكان فاس الذين عمدوا إلى إحراقه في مشهد عام بعد ما تجرأ وبدأ ينشر المسيحية بين سكان المدينة المسلمين.

لقد أثرت هذه الحملة أثارا سلبية في المجتمعات الإسلامية و بهذه الوضعية أنشأت طوائف وقد لبسوا ثقة الناس من الجهل و حصلوا على أموال كثيرة، وقد وجدوا بفاس بعض الأشخاص يمارسون أعمالا غير شرعية، أن المطالع لمكانة الونشريسي العلمية يدرك انه كان موسوعة علمية في كل الميادين وهذه السمة تكونت عنده لتلقيه العلم عن كبار علماء عصره في المغربين الأقصى والأوسط فبلغ بذلك غاية كبرى في مجال التأليف.

لَم يكنِ الغزوُ الصليبي على الشمال الإفريقي ماديًّا فقط، بل كان مصحوبًا بغزوٍ فكري متمثِّل في الحملاتِ التنصيرية التي مارَسها المسيحيُّونَ على مرأى ومسمعٍ من السُّلطانِ وأعوانه.

وتشير المصادرُ الأجنبية إلى المصيرِ المأسوي الذي انتهى إليه الراهب: مرتان دوسبوليت Martin despolette على يدِ سكان فاس الذين عمَدوا إلى إحراقِه في مشهدٍ عام بعدما تجرَّأ وبدأ ينشُرُ المسيحيةَ بين سكان المدينةِ المُسلِمين.

ولا يعني هذا أن الحملةَ التنصيرية لم تخلِّفْ آثارًا سلبية في المجتمعات الإسلامية، بل على العكس من ذلك، إذ خرَج مَن خرج عن دِينه هروبًا مِن الوَضْع المُزْرِي، وشكَّل هؤلاء طائفتين:

**الطائفة الأولى** :تشمَل العرَّافين والسَّحَرة والمشعوذين، وهؤلاء يوهِمون الناس بأنهم يعلَمون الغيب، وقد كسَبوا ثقة الناس الجهَّال وأمثالهم، وحصلوا بذلك على أموالٍ كثيرة.

**الطائفة الثانية** :وتتمثل في الصوفية والساذجين من الجمهور، وأصحاب أسرار الحروف فهم يصومون صومًا غريبًا، ولا يأكلون اللَّحم، يحمِلون التمائم، ويزعُمونَ أنهم تتجلَّى لهم الأرواحُ لتمدَّهم بمعرفةٍ شمولية ؛ فقد وجد بفاس بعض الأشخاص الذين يحمِلون اسم الصوفيةِ، ويمارسون أعمالاً غيرَ شرعية؛ كإباحة التغنِّي بقصائدَ غرامية فاحشة، وتشبُّثهم بالنظريات الفلسفية المستوردة؛ كوَحْدة الوجود، والاتحاد والحلول.

**الطائفة الثالثة** :هم الخُرَافيُّون من الجمهور الساذجين، فتختلف وجهاتُ نظرِهم باختلاف معتقداتهم؛ فهم يعتقدون اعتقادًا جازمًا أن بإمكان الإنسان أن يكتسبَ طبيعة الملائكةِ بالأعمال الصالحة والصيام.

لا يزال كتاب "المعيار المعرب " لأبي العباس أحمد الونشريسي بأجزاءه الاثنى عشر موضع اهتمام من طرف الباحثين و الجامعيين، فقد اجتهد الونشريسي في تأليف "المعيار" أكثر من أربعين سنة، ساعيا إلى تحقيق عِدَّةِ غايات؛ منها ما صَرَّحَ بِذِكره، ومنها ما نَسْتَشِفُّهُ من ثَنَايَا المنهج الذي سلكه في تأليف "المعيار"، ويذكُر المؤلِّف في بداية الكتاب، أنه جمع في كتابه أجوبة المتأخرين المعاصرين من علماء إفريقية والأندلس، ومن متقدِّميهم ما يعسُرُ الوقوف على أكثره في أماكنِه، واستخراجه من مكامنه؛ لتبدده وتفريقه... ورتَّبتُه على الأبواب الفقهية؛ ليسهُل الأمر فيه على الناظر، وصرحت بأسماء المفتين إلا في اليسير النادر[2]]، ويُمكن أن نُقَسِّمَ تلك الغايات إلى ثلاثة أقسام هي:[1]

[1] مقدمة المعيار ،محمد حجي رحمه الله، مصدر سابق ، ص ح.

[2] المعيار؛ للونشريسي ، ج1، ص 1

**أولا: غاية الرسالة التعبدية**

بدأ الونشريسي مقدمة "المعيار" بتذكيره أنَّ الله، سُبحانه؛ "جعل العلم النافع من أعظم الأسباب الموصلة لمقاصد السعادة الأخروية"، ثم صَرَّحَ بقصده التَّعبدي من بَذْلِ الجُهد في مؤلفه ،وعموماً؛ فَإنَّ العالم الرَّباني هو الذي يُرسِّخُ فيه عِلْمُه خشية الله تعالى، فَيَتَّخِذَ من اجتهاده في تحصيله أعظم القُربات التي تَنفعه يوم القيامة.

**ثانيا: الغاية العِلمية:**

وصف الونشريسي في مقدمة "المعيار" صَنِيعَهُ فيه بكونه؛ جَمْعٌ مُغرِبٌ لفتاوى المُتَقَدِّمِين والمُتأخرين المعاصرين له لـ"ما يعسر الوقوف على أكثره في أماكنه، واستخراجه من مَكَامِنِه، لِتَبَدُّدِهِ وتَفْرِيقِه، وانبهام مَحَلِّهِ وطَريقه"، وفي الخاتمةَ ذَكَرَ أنَّهُ ترك "أجوبة كثيرة من الفقه والأحكام؛ مما لا تضطر إليه القضاة والحكام". وهذا ما يُعْرِبُ عن رغبة أبي العباس في أن يُسِهمَ مُؤَلَّفَهُ في "توحيد الاجتهاد الفقهي من خلال الجمع والتأليف؛ لكي تكون في مُتَنَاوَلِ القضاة والمفتين، وإطِّلاعهم على اجتهادات فقهاء المذهب، ولا يخفى ما في ذلك من فوائد"؛ يأتي على رأسها تَوْفِيرِ المجال لدراسة التراث الإفتائي في الغرب الإسلامي وتَقْيِيمِهِ وتنقيحه ، وهو المُلاحظ من صنيع الونشريسي في"المعيار"، بالرَّغم من الملاحظات التي سجلها عليه بعض العلماء والباحثين من أنه ضم بعض الفتاوى الضعيفة، وعُذره في ذلك "ضخامة الكتاب وتعدد المراجع وانصرافه إلى المقارنة والتعليق".

**ثالثا: الغاية التَّعْلِيمِية :**

يَظْهَرُ هذا القصد من خلال منهج تأليف "المعيار" بشكل عام؛ الذي عَمَدَ فيه الونشريسي إلى إدماج الإجابات المتشابهة والإقران بينها، لما يحمله ذلك الوَصْلُ من الأهمية التي تُتَمِّم الفائدة التعليمية؛ لذا نجد الونشريسي يُقدِّمُ المسائل بعبارة (مسألة في معنى ما تقدم، أو من هذا المعنى،...)؛ تأكيداً على أهمية الالتفات لهذا الربط. إضافة لتَذْيِيلِ المسائل بتعليقات تَتَضَمَّنُ فوائد مُختلفة تُظْهِرُ طُرُقِ الاستنباط، وتُعَمِّقُ من فِقْهِ المَسائل.

كما نلمس هذا المقصد في أجوبة الونشريسي؛ التي تُطلِعُنا على مجموعة من القواعد المنهجية لعلم الفتوى،المَصُوغَةُ بطريقة تطبيقية تُنزَّلُ فيها الأصول على الفروع، وتُمَحَّصُ فيها نُصُوصُ أمهات أصول الفتيا في مدى قُدرتها على تَأْطِيرِ واقع المكلفين المُتَجَدِّدِ؛ الأمر الذي يزيدها وُضُوحًا، فـ"لا تَبْقَى سابحة في المطلق كما هو الشأن في كتب الفقه عامة، وإنَّمَا تَتَحَدَّدُ مَسَائِلُهَا في المكان والزمان والموضوع بحسب ما تأتي به الأسئلة التي تَنْبَنِي عليها"، وللتَّنْبِيهِ على تلك الإفادات يستعمل الونشريسي مصطلحات تعليمية تُحَفِّزُ هِمَّةَ الطَّالِبِ؛ من قبيل "تأمل، انظر، تدبر، تذكر، افهم" ونختم ما يتعلق بمكانة كتاب المعيار، أن المؤلِّفَ استغرق في تأليفِه حسب ما جاء في مقدمة المعيار حوالي ربع قرن، من نحو عام 890هـ إلى وفاة المؤلف عام 914هـ [1].

[1] مقدمة المعيار، ج1، ص ح.